أدونيس وشعرية البنية المراوغة في ديوانه(الكتاب)

د عبد الناصر هلال

يعد أدونيس من أكثر الشعراء العرب جسارة وقدرة على التمرد، ورغبة في التجاوز والاستباق، يؤمن بالهدم والبناء فى آن، فهو منذ ستة عقود فتح نافذة التجريب في الشعر العربي الحديث واسعة، حتى يمكن أن نسميه "الأب الشرعي للحداثة الشعرية العربية الجديدة"، عرفت على يديه خلخلة المفاهيم السائدة المستقرة عن الفن والإبداع والفكر، استطاع أن يجذب الأجيال الطامحة للتجاوز والمسكونة بتحرير الذات من سلطة الآخر، فرفعت راية البحث عن آفاق جمالية جديدة.

أدخل أدونيس على القصيدة العربية الحديثة ما لم تكن تعرفه من قبل، تغلغل في جسد الشعرية العربية، وفجر في نفس المتلقي مجموعة كبيرة من الأسئلة – فأصبحت القصيدة – عنده – قلقا، يسكن الروح، وسؤالاً عميقا يسعى لإجابات كثيرة .

مارس أدونيس نسق البنية المراوغة في جل أعماله وبلغت حدتها- إمعانا في التجريب- في ديوان "الحصار"حين استخدم البنية التراكمية التي تعتمد على جدل المتن والهامش في قصيدة "إسماعيل" وفي ديوانه "الكتاب" أسس لشعرية تعتمد على التشظي، فأصبح قفزة خارج السياق ، وشكلا يطرح أسئلة في كيفية التلقي، يحتاج إلى آليات جديدة تعتمد على البصرية و تأمل عميق وحركة دائبة متغيرة الاتجاهات لفك مغاليقه وتأويل علاقاته المتشابكة، ، تجعل القارئ أمام قراءات عدة ينحاز إلى أحدها مقترحا دلالة ما، ربما تتناقض مع قراءة أخرى للنص نفسه.في "الكتاب" يضلل أدونيس القارئ وكأنه يخطط لجريمة جمالية لا يحفل بنتائجها عندما يضع على صفحة العنوان الداخلية وصفا لكتابه بأنه :"مخطوطة تنسب إلى المتنبي يحققها وينشرها أدونيس" فكأنه يتقنع بالمتنبي ويحيل إليه الجريمة والخراب الفني، ليقف القارئ أمام زمنين متداخلين وعالمين متماهيين: زمن المتنبي وعالمه، وزمن "أدونيس" وعالمه، ثم يتماهى معه ويتوحد به عبرالتناص" ومنزل ليس لنا بمنزل "إنها لحظة اختراق التاريخ والعالم واختراق الذات في الوقت نفسه.

يتكون "الكتاب" من سبعة أسفار وكراستين إضافيتين، إحداهما عنوانها: (أوراق عثر عليها فى أوقات متباعدة الحقت بالمخطوطة، والثانية عنوانها: (الفوت فيما سبق من الصفحات).

تتشابه الأسفار السبعة – التي يتألف منها "الكتاب" – من حيث طريقة بنيتها وتشكيلها على الصفحة "حيث تأتى الصفحة في معظم الأسفار على النحو التالي :مستطيل رأسي في منتصف الصفحة يحتوى على جزئين مكتوبين ببنط كبير يفصل بينهما خط/علامة الحاشية، وعلى يمين المستطيل عمود/نص = ذاكرة الراوي مكتوب ببنط أقل مما عليه نص المستطيل، وعلى يسار المستطيل إشارات تفسيرية لما يرد في الجانب الأيمن: ذاكرة الراوي في بنط أقل سمكا من البنطين السابقين .

والمطالع لكتاب أدونيس يجد نفسه أمام خطاب معقد، مدهش، محير، رافض، ومتجاوز، يدعو إلى القطيعة، لقد ألف القارئ بصريا أن يقرأ نصًا/خطاباً في إطار عادته التي تربى عليها حين يطالع أعمالاً شعرية، هذه العادة التي تتعامل مع مستوى تدريجي للبنية التكوينية للنص ، تمارس معها عين القارئ عادة محددة الاتجاه وإن تداخلت الأصوات، لكنه أمام كتاب أدونيس يجد عينه وعادته القرائية وذائقته أمام اختبار جديد: أمام آفاق متعرجة ومتداخلة، أمام تراكم بنائي تخترقه مستويات كثيرة من السياقات الضالة والمنحرفة، تخلق كتلة متشعبة. كيف يقرأ المتلقي هذا الخطاب الذي يكوِّن شعريته في ظل علاقة خاصة مع أشياء لم يألفها من قبل ؟

هل يقرأ الصفحة كاملة بكل نصوصها حتى نهاية الديوان،أم يقرأ نص المتن متواترا ثم الهامش متواترا ثم النص المرافق في المستطيل اليسار في علاقته بالمتن؟ سيجد القارئ نفسه محاصرا بالأسئلة مطالبا بالمشاركة والاقتراح والإنتاج .

أسهم أدونيس بهذا النص فى خلق شعرية مخاتلة وأنتج آلية قرائية لم تعرفها وسائل التلقي من قبل.